

محاضرات مقياس: المنهج التفكيكي لطلبة
السنة الثانية ماستر لسانيات الخطاب، كلية
الآداب واللغات جامعة محمد الصديق بن
يحي جيجل

أستاذة المقياس د/ أسماء العايب

السنة الجامعية
2026 /2025

المحاضرة الأولى: التفكيرية و فكر ما بعد الحداثة

أولاً-محاولة لتعريف استراتيجيات التفكير:

توقعنا محاولة إيجاد تعريف واضح لاستراتيجيات التفكير في مرقّ القلق المعوفي أمام مصطلح صعب التحديد، ضبابي المفهوم فقد رآد جاك دريدا أن تكون التفكيرية إستراتيجية لا منهاجا كما أنه لم يحدد لها مفهوما واضحا وهذا ما أفوه في العديد من كتبه وحواراته- وكتاب الكتابة والاختلاف على وجه التحديد- والصعوبة في ذلك نابعة أساسا من كون جميع المحمولات وجميع المفاهيمات و الدلالات المعجمية للتفكيرية أو التفكير- وحتى التفرصات النحوية التي تبدو في لحظة معينة وهي تمنح نفسها لهذا التحديد - خاضعة هي الأخرى للتفكير وقابلة له سواء أكان ذلك بشكل مباشر أو غير مباشر.

التفكير إذن نوع من الخلطة لكل المعاني التي تستمد منشأها من العقل، كما أنه يدل على الهدم، فهو ليس تحليلًا، لأن تفكير عناصر بنية لا يعني الرجوع إلى العنصر البسيط حيث تحليل الدلالة الإصطلاحية للتفكير deconstruction إلى فضاء واسع من المفاهيم تقتون أساسا بتفكير الخطابات الفلسفية، والنظم الفكرية، وإعادة النظر إليها بحسب عناصرها المكونة والاستغواق فيها، والشيء الذي وجب التركيز عليه دوما؛ أن التفكير ليس نقدا بالمعنى العام ولا بالمعنى الكانتي، فالنقد بمعنى الحكم والتقييم أو القوار والاختيار، يشكل أحد الموضوعات الأساسية التي يقوم عليها التفكير، والتفكير حدث ليس بحاجة إلى وعي وتشلور فهو فقد للبناء .

تتأسس التفكيرية بوصفها طريقة للنظر والمعاينة للخطاب وتقف إلى الجانب الآخر من الأطروحات التاريخية، و السوسيولوجية، والسيكولوجية والبنوية والوصفية هدفها تحرير شغل

المحلية، وافتراض آفاق بكر أمام العملية الإبداعية، إنها محاولة لإنشاء استراتيجيات تتفادى المقابلات التي ميزت الفكر الغربي، بدءاً من أفلاطون وصولاً إلى دي سوسير، لتقيم في الأفق المغلق لهذه المقابلات استراتيجيات بديلة للقراءة والكتابة، أو في مقربة النصوص، وهي من هذه الناحية ليست حيادية وإنما تثويرية، تحول قلب الثنائيات الكلاسيكية وإراحة النظام.

تتظر التفكيكية إلى النص الأدبي على أنه كتلة صماء لا بد من تفجورها من الداخل بهدف الكشف عن نقطة تناقضها ونقضها، قراءة مؤجلة يستطيع القارئ بموجبها شحن اللغة بما لانهاية من المعاني والدلالات، قراءة حفية في النسق الداخلي للنص تخلخل كل المعاني المستمدة من اللوغوس وبالخصوص معنى الحقيقة.

تتجاوز التفكيكية بذلك المدلولات الثابتة عن طريق الخلطة واللعب الحر للكلمات؛ لأنها تقويض للنص بالبحث في داخل ما لم يقله بشكل صريح، واضح وهي تعرض منطق النص الواضح المعلن وادعاءاته الظاهرة بالمنطق الكامل، وتعمل على هتك كل أسوره وتقطيع أوصاله، وصولاً إلى أساسه الذي يستند إليه، فيتضح هذا الأساس وضعفه ونسبته وسيورته فتسقط عنه قداسته، التفكيكية بهذا الفهم هي: استراتيجيات فلسفية ونقدية مناهضة للمركزية طورها أساساً الفيلسوف جاك دريدا في أواخر الستينيات فهي تهدف إلى زعزعة مفهوم المركز أو الأصل المطلق: الحقيقة، الوجود، الوعي، الكلام، وتبين أن هذا المركز لا يقوم إلا على إقصاء وتهميش لعنصر آخر مضاد: الوهم أو الجنون، الغياب، الكتابة، فالتفكيكية لا تقوم بالهدم الكلي، بل بإجواء قراءة مزوجة تظهر كيف أن النص يتناقض مع نفسه ويقوض أسسه من الداخل، فالتفكيك إذن ليس غاية في حد ذاته بل هو وسيلة لإطلاق طاقات كامنة تسمح برؤية مغارة هذه الرؤية المغارة هي جوهر الفعل الإبداعي.

المحاضرة الثانية: التفكيرية وفكر ما بعد الحداثة (جزء 2):

ثانيا- سياق ما بعد الحداثة وميلاد التفكير :

أحدثت البنيوية بفكرها المميز ثورة لاسابقة لها في ميدان الفكر والنقد هذا الفكر الذي سوعان ما انقلب عليه دعائه ليصل الفكر النقدي العالمي إلى مرحلة جديدة-ما بعد البنيوية-التي رتبطت بما بعد الحداثة رغم وجود آراء تؤكد كونهما الشيء نفسه.

ما بعد الحداثة، سواء نظونا إليها كحقة تاريخية أو حالة فكرية، فهي دفعة إلى القيام بعملية نقدية ومراجعة شاملة وجذرية لمشروع التنوير والحداثة، هذا الفكر الذي أنتجته معطيات الحضرة الغربية المتطورة، القضية إذن قضية حضرية بالأساس؛ ذلك لأنها مسّت جوانب عديدة من الحياة كما أدت إلى تغيير العديد من الثوابت، إذ شهد القرون العشرون للميلاد وبخاصة الستينيات منه، عداءً فلسفياً كبيراً للزعة الإنسانية وتجسد هذا العداء في سيطرة التفكير تفكيرك شمل العقل والعقلانية، والمبادئ والقيم والأهداف والغايات والتاريخ، وفي عبلة جامعة: تفكيرك الإنسان وعالمه الثقافي.

ساهمت التحولات المختلفة التاريخية والاجتماعية التي عايشها الغرب بعد الحرب العالمية الثانية في بروز أسلوب حياة جديد قوامه؛ إلغاء الذات الموحدة، فذات ما بعد الحداثة ذات حرة مستهلكة مبعثرة، فصامية استبدل مفكروها التشتت مقابل الوحدة- والتعدد والاختلاف مقابل الهوية، واللامركزية مقابل المركز والسطح مقابل العمق، والمحلية مقابل الكونية، والأقلية مقابل الكلية وهذا بالطبع مرق كبير يوقع في التشتت وسوء التقدير، والقلق والانفصام والعبث بكل ما هو مقدس وكل ما هو ثابت .

رسمت ما بعد الحداثة لكل السوديات الكبرى صورا جديدة، كما زعت عن العلم قداسته و صفة الكمال، و هالة التقديس التي طالما حفته، كما أصبح واحدا من تلك السوديات الكبرى التي حان وقت إبدالها والخروج من أطوارها لأنها لم تجلب للبشرية سوى العناء و الشقاء جواء ما سببته من حروب دموت الإنسانية وشودتها، وجعلتها تعاني من ويلات هذا العلم الذي جنى على الإنسانية، تشكك ما بعد الحداثة، في النماذج العرقية والمعرفية والثقافية ولا تعترف بالمركبات وأشكال الخطاب الثانوية والمهمشة في التوات، أي تلك الخطابات التي أقصتها السلطة نتيجة كونها خطابات مضادة للمركز، فكان نصيبها الإقصاء والإبعاد لأنها تساهم في بلورة أشكال من الوعي الاديكالي الذي يهدد استقوار المركز واستقراره، ويعمل على إعادة الاعتبار لعناصر هامشية، هذه الأفكار هي التي حركت مفاهيم سادت المنظومة الفكرية الغربية لودح من الزمن.

المحاضرة الثالثة : أصول التفكيرية :

أولا/ الأصول الفلسفية:

تعددت مشرب التفكيرية وأصولها، لوجه لا يمكن فيها إحصاء كل تلك التيارات المؤثرة داخل المشروع التفكيرية، وإذا ما حولنا إحصاء الأطر والخلفيات التي شكل جاك دريدا وفقها استراتيجيات التفكير فذلك نفسه مستحيل حين يتعلق بمجموعة النقاد الذين تأثروا بالتفكيرية من أمثال: هيلس ميلر و بول دي مان، وغيرهم ولذلك سنركز الحديث حول تلك الخلفيات التي أطوت المشروع التفكيرية الريددي بشكل مباشر من بينها: الفلسفة الوجودية، الفلسفة الظاهرية، والفلسفة العدمية، إضافة إلى كون استراتيجيات التفكير ذات علاقة وطيدة بالأسنية المعاصرة وخاصة جهود فريدنان ديسوسير.

ارتبطت التفكيرية بأبعاد فلسفية ترجع إلى الفلسفات العدمية التي تنسب إلى نيتشه وهيدجر بشكل خاص، والتي تقوم أساسا على مساءلة كل ماهو معطى بالثقافة ومسلم به، ووضع موضع الشك، ويمكن إجمال مجموعة الأفكار الفلسفية التي أفاد منها دريدا فيما يلي:

1- الفلسفة الوجودية:

اغتنت التفكيرية بأفكار الوجودية بشكل غير مباشر لكنه عميق، خاصة أفكار جون بول سارتر عن المعنى والوجودية؛ هي تلك المدرسة الفلسفية التي تتخذ من الإنسان موضوعا لها ليس فقط من خلال التفكير وإنما من خلال الفعل والشعور، أي أنها ترتبط بالإنسان كفرد حي تقوم الوجودية على مبدأ عدم وجود هدف واحد أو حقيقة واحدة يعيش من أجلها الجميع وكل فرد في الأرض له الحق والحرية الكاملة في اختيار الحياة التي يرغبها، والهدف الذي يسعى له ويعيش من أجله وليس من حق الغير تحديد خيارات الآخرين، وقد أفاد منها جاك دريدا وتجاوزها في مواضع عدة أهمها:

- رفض فكرة المركز والأصل الثابت الذي يحدّد الشيء مسبقا .
- الوجود يسبق الماهية فالإنسان يولد ثم يصنع ماهيته، وعند دريدا بدلا من البحث عن ماهية النص أو اللغة وجب البحث عن الوجود الفعلي للغة كأثر وكاختلاف.

- الحرية (حرية القاءة) ولانهاائية المعنى وغوها من الأفكار.

2- الفلسفة الظاهرية (الفينومينولوجيا أو الظاهرانية):

ساهمت الفينومينولوجيا بشكل مباشر في تشكّل المشروع الديردي، حيث كان إدْموند هوسرل يولي أهمية قصوى للوعي الذي يراه تفاعلاً حقيقياً مع العالم الخارجي، فالوعي فعل حيث تكون الذات قاصدة، ويكون الشيء مقصوداً، ويكون كلاهما متضمناً بالتبادل وحيث تكون الذات حقيقية، ويكون الشيء حقيقياً أي صادراً حقاً من الخارج، إذ إنّ نظرة الظاهرانية للعالم تعود لاعتباره نصاً مفتوحاً على التأويل، للبحث في الوجود وماهيته، ممّا فتح الأفق لتعدد القراءات ذلك أنّ الظاهرانية لا تبحث عن تحديد الصلات التي تعتمد على التسلسل التاريخي، بل ترسم صورة واضحة للجوانب النظرية الكثيرة للقراءة، فالظاهرانية تعني تحقيق وصف شامل لظاهرة المعنى الأدبي، وقد ركّز روادهما على فعالية الفرد الذي يؤلّف النتاج الأدبي ومعناه بوصفه موضوعاً ضمن قصد معين.

من منظور الفلسفة الظاهرانية المعرفة الحقّة للعالم لا تتمثّل بتحليل الأشياء كما هي خارج الذات؛ وإنّما لا بدّ من تحليل الذات نفسها وهي تقوم بمهمة التعرّف على العالم؛ لأنّ الوعي البشري لا يكون منفصلاً، بل هو وعي بشيء معين، ولكنّ هذا الوعي بحاجة لعملية إفراغ من التصورات القبلية، لذا لا بدّ من التركيز على القارئ بوصفه شخصية فاعلة في عملية القراءة وعلمية إنتاج المعنى، حيث التفاعل بين القارئ والنص المقروء، وهذا ما ظهر في فكر هوسرل وهيدغر وغيرهما من رواد الظاهرانية، أفاد تريدا من الفلسفة الظاهرية تأوّا بأفكار منها:

- الذات في وعيها بالعالم، التفكير في الوجود دون الوجود.

- الهدم والتدمير.
- أفكار هيدجر عن الوجود والقراءة والكتابة و أهميتها .
- تعدّد المعنى و التناص والبينصية.
- لا يتحقق الحضور إلا بالغياب.

3- الفلسفة العدمية:

سار جاك دريدا على نهج الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه، ذلك لأن نيتشه بحث في معظم أعماله حول مفهوم الحقيقة، النتيجة النهائية بالنسبة إليه هي أن الحقيقة ليست شيئاً ثابتاً تصل إليه الذات من خلال عملية بحث موضوعية، بل عملية إنتاج تقوم بها الذات من خلال التأويل وهذا الأمر يفتح آفاق كبيرة أمام القارئ، مما يجعل النص أكثر تحرراً من القوالب القديمة، وهذا الأمر أشبه بثورة على القيم الحداثيّة، والفكر الفلسفي الغربي، ودعوة صريحة إلى تقويضه فالمثاليات الحداثيّة والعقلانية الغربية، لا تنتج أي معنى ولذلك يجب أفولها بحسب تعبيره.

يمكن ملاحظة أثر نيتشه داخل التفكيكية من خلال المقولات الآتية:

- الشك في جميع الأفكار.
- موت الإله وإعطاء الأولوية للإرادة الإنسانية ومنه مقولة موت المؤلف.
- معنى التلويح وتلويح المعنى.
- الكتابة والثورة على الصوت: هاجم نيتشه فكرة العداء الفلسفي للكتابة، وأفاد منه دريدا في نقد مركزية الصوت.
- التناص: يوى نيتشه أنّ الفلسفات جميعاً تقوم الواحدة منه على الأخرى، فهي تركز على التناص المتنقل بين اللغات الرمزية، بمعنى أنّ كل فلسفة تأخذ من الأخرى وكل الأعمال الأدبية والمعرفية واللغوية تتقاطع فيما بينها .

المحاضرة الرابعة: أصول التفكيكية جزء 2 (الأصول اللسانية)

ثانياً: الأصول اللسانية :

تشير لسانيات سوسير إلى مجموعة المبادئ والأفكار التي وضعها اللغوي السويسري فردينان دي سوسير الذي يُعتبر كتابه "محاضرات في علم اللسانيات العامة" الذي جمع ونُشر بعد وفاته بناءً على ملاحظات طلابه، نقطة انطلاق أساسية في علم اللسانيات الحديث وفي تأسيس ما يُعرف بـ البنيوية وقد تمثلت جهوده الأساسية حول عدة مفاهيم محورية: اللغة، الكلام، العلامة اللغوية التي قسمها إلى دال، ومدلول، باعتبارية العلاقة بين الدال والمدلول، كما ميز سوسير بين الدراسة التزامنية للغة والدراسة التعاقبية.

تُعتبر نظرية سوسير تحولاً جذرياً في مجال الدراسات اللغوية والنقدية لأنها: نقلت الاهتمام في دراسة اللغة من الجانب التاريخي (الفيلولوجي) إلى الجانب البنيوي والنظامي وأسست اللسانيات كـ علم مستقل له موضوعه ومنهجه الخاص كما وفّرت الإطار النظري لظهور البنيوية ليس فقط في اللسانيات، بل في مجالات أخرى مثل الأنثروبولوجيا (كلود ليفي-ستروس) والنقد الأدبي والتحليل الثقافي، رأى العديد من النقاد والباحثين أن التفكيكية لم تخرج عن الأطر اللسانية التي رُسى دعائمها فردينان دي سوسير إلا أن جاك ريدا نقد لسانيات ديسوسير وتجاوزته في الكثير من مؤلاته، وإن اعتونا العلاقة بينهما فإنها ستكون علاقة انطلاق ونقد وتجاوز، ومن أهم المقولات السوسيرية التي تحضر في التفكيكية مايلي:

- استقلال النص كبنية لغوية وغزلها عن مختلف الوسائط الخرجية.
- المعنى يتحقق من خلال حرية العلامة داخل النسق.

- إلغاء العلاقة التطابقية بين الدال والمدلول.
- ترك الفواغات بين الدال والمدلول لشحن الدوال بفكرة اللعب الحر الذي يؤدي إلى تحقيق مبدأ لا نهائية الدلالة، أو تعدد المعنى بتعدد طرق اللعب والبروغة.
- الثنائيات الضدية التي قابلها التفكيكيون بمصطلح الاختلاف، فالمعنى عند البنيويين يتحقق من خلال الثنائيات الضدية، أما عند التفكيكين فالمعنى غائب باستتوار عن طريق الاختلاف وتأجيل الدلالة.
- استعرت التفكيكية من اللسانيات منهجها الوصفي ويتجلى ذلك في وصف النظام اللامتناهي والمختلف للغة النصوص الأدبية و الفلسفية .
- على غرار الثنائيات السوسوية نسج فريدا ثنائيات من قبيل: الحضور/ الغياب، الكتابة/ الاختلاف...الخ

وفي الأخير يمكن القول أن تقاطعات التفكيكية مع لسانيات ديوسير و مجموع المدرس الفلسفية المختلفة لم تكن مقصورة على التلاقي والتشابه، وإنما هناك مواطن اختلاف تفوق بين مجموع هذه الخلفيات واستراتيجية التفكيك، ولا يمكن في أي حال من الأحوال أن نجزم بكون هذه الفلسفات والأفكار هي وحدها من أطوت استراتيجية التفكيك، بل هناك مشرب أخرى أفادت منها مثل: بعض مقولات النظرية النفسية لدى سيغموند فرويد كالكبت، الفرض، الحلم، الهلوسة.

إضافة إلى أفكار فلسفات أخرى و مفكرين آخرين، فريدا أقام فلسفته واستراتيجية التفكيكية انطلاقا من نقده وقراءته للمنظومة الغربية في أبرز معالمها المؤثرة فكريا وحضريا وهذا ما يجعل بعضا من هذه المشرب يبدو جليا، ويختفي بعضها الآخر خلف حجب الاختلاف الريدي .

المحاضرة الخامسة: التفكيرية بين الفلسفة والنقد

أ- فلسفة التفكير:

ظهرت التفكيرية أول ما ظهرت في بيئة الفلسفة بعيدا عن النقد الأدبي، إذ طوح جاك دريدا أفكاره الفلسفية في مقالات متفوقة ومؤلفات بالغة التعقيد أسلوبا ولغة، منها "الصوت والظاهرة" الذي يقدم من خلاله نقده لنظرية العلامة و فينومينولوجيا هوسرل، وقبل ذلك قام بترجمة كتاب لهوسرل حول أصل الهندسة سماه: "أصل الهندسة ترجمة ومقدمة" إضافة إلى كتاب "صيدلية أفلاطون" وكتاب "هوامش الفلسفة"، "الكتابة والاختلاف" كتاب "تاريخ الكذب" وغيرها من المؤلفات الفلسفية إضافة إلى المقالات والحوارات الصحفية التي بث فيها أفكاره عن فلسفة التفكير.

يعدّ جاك دريدا أول من استخدم التفكير بمعناه الجديد في الفلسفة، وأول من وظفه فلسفيا بهذا الشكل وهو ما جعله من أهم الفلاسفة في القرن العشرين، وكان هدف دريدا الأساس خلف استراتيجية التفكير؛ هو نقد منهج الفلسفة الغربية أو الأوروبية التقليدية، من خلال آليات التفكير التي قام بتطبيقها إخوانيا من أجل ذلك.

بالنسبة لدريدا فإنّ للتفكير تأثرا إيجابيا على الفهم الحقيقي لمكانة الإنسان في العالم وقد كان دريدا بأفكاره الفلسفية مختلفا تمام الاختلاف ومغاويا للساند الفلسفي، لذا كان يتلقى دائما انتقادات في منظوره لعديد القضايا، كما اتهم بالغموض والظلامية والعشوائية، ومع ذلك حاول معالجة مجموعة واسعة من القضايا والمشاكل المعرفية السائدة في التقاليد الفلسفية الغربية (المعوفة، الجوهر، الوجود، الزمن) فضلا عن معالجته المستمرة للغة والأدب .

المحاضرة السادسة: التفكيكية بين الفلسفة والنقد/ جزء 2:

ثانياً: التفكيكية في النقد الأدبي:

لا تهدف استراتيجيات التفكيك كما أرادها دريدا إلى تقديم قراءة نقدية لعمل أدبي ما فهي؛ مملسة
قائية تنتج كتابة قابلة للقراءة، وهكذا عبر سلسلة لا متناهية من المعاني، ويمكن رصد بدايات
ظهورها في النقد الأدبي منذ محاضرة دريدا التي ألقاها في جامعة جون هوبكنز الأمريكية إذ
فتحت أفقا جديدا للنقد الأمريكي، فوجدت التفكيكية إقبالا واسعا من قبل ثلثة من النقاد
الأمريكيين بخاصة بول دي مان وكان من أشهرهم نقاد جامعة "جون هوبكنز" و جامعة "ييل"

أحدثت التفكيكية، كاستراتيجية نقدية ثورة جذرية في طريقة قراءة وتأويل النصوص
الأدبية، وأدت إلى تحولات كبرى في النظرية النقدية، إذ قامت بقلب مركز المعنى كما وجهت
ضربة قاصمة للفكرة التقليدية بأن النص له معنى واحد، نهائي، ومطلق، وأن هذا المعنى يمكن
اكتشافه من قبل الناقد أو قصده من قبل المؤلف كما عززت التفكيكية فكرة "موت المؤلف"
حيث أصبح المصدر الأساسي للمعنى هو لعبة العلامات اللغوية داخل النص الأدبي نفسه
وليس وعي الكاتب أو قصديته، لتفتح الباب أمام تعدد القراءات.

من منظور جاك دريدا والنقاد التفكيكيين أصبح النص ساحة لتعدد القراءات اللانهائي
حيث تكشف كل قراءة تفكيكية عن تناقضات جديدة، مما يفتح الباب أمام تفسيرات متجددة
ومختلفة، كما غيرت التفكيكية النظرة إلى اللغة نفسها بانتقادها اللوغوسنترية؛ فالنقد الأدبي
التفكيكي أصبح يشكك في تمركز الخطاب الغربي حول "الحضور" أو "الكلام" (الصوت
المباشر) على "الكتابة" -الوساطة المؤجلة والغياب كما أصبح النقد يرى اللغة كشبكة من
"الآثار والاختلافات المرجأة- مما يعني أن المعنى دائما ما يكون وسيطاً وغير مباشر، ولا

يمكن أن يكون "حاضرًا" بالكامل في أية لحظة. كما قامت بتقويض الثنائيات الهرمية فبدلاً من قبول الثنائيات كحقائق ثابتة يقوم الناقد التفكيكي بالبحث عن اللحظات التي ينهار فيها هذا التسلسل الهرمي، وقد فتح هذا الأسلوب الدريدي الباب على مصراعيه أمام النقد النسوي (تفكيك ثنائية الذكر/الأنثى) ونظريات ما بعد الاستعمار (تفكيك ثنائية الشرق/الغرب)

فالتفكيكية إذن هي الحلقة الأهم في تاريخ النقد الأدبي "ما بعد البنيوي"، لأنها نقطة التأثير الأقوى في المناهج اللاحقة كما ساهمت في نشأة النقد الثقافي، حيث أن تفكيك الثنائيات والقوة الكامنة في اللغة لم يعد مقتصرًا على النص الأدبي بل امتد إلى الثقافة والمؤسسات الاجتماعية، كما أثرت بعمق في النقد النسوي عبر أدواتها لزعة المفاهيم الهوياتية الثابتة، فلم يعد النقد الأدبي يطبق التفكيكية بشكلها الدريدي الصارم، بل أصبحت أداة نقدية من أدوات النقد الثقافي والنسوي وما بعد الكولونيالي، إذ أصبح النقاد يستخدمون تفكيك الثنائيات والبحث عن التناقضات والكشف عن الإدعاءات الظاهرة للنصوص والكشف عن آليات القوة والهيمنة الكامنة فيها .

نقلت التفكيكية النقد الأدبي من مهمة تفسير النص إلى مهمة قراءة عمل النص أي الكشف عن كيفية عمل اللغة داخله وتفكيك أي محاولة لإرساء معنى نهائي أو سلطة مطلقة فاللغة الأدبية بالنسبة للنقاد التفكيكيين ليست أداة شفافة تحمل المعنى من نقطة المؤلف إلى المتلقي، بل هي شبكة معقدة تتوالد فيها المعاني بشكل مؤجل ومتقاطع ، التفكيكية إذن لم تسيطر على النقد الأدبي فحسب، بل غيرت طبيعة القراءة النقدية نفسها .

المحاضرة السابعة: مبادئ التفكيرية :

لتركزت استراتيجيات التفكير أساساً على مجموعة مبادئ ومركبات وفي أغلبها تحمل ثروة على الفلسفة الغربية ومنطلقاتها الأساسية ومن أهم هذه المبادئ ما يلي:

1-الثروة على العقل:

يعني به دريدا التضافر لتأسيس بنية قوية في خارطة الفكر ويعتمد على اقتحام سكونية الميتافيزيقا، وإعطاء الكلمة المنطوقة قيمة عالية بسبب حضور المتكلم والمستمع وقت صدور القول، فليس ثمة فاصل زمني أو مكاني، بينهما فالمتكلم يستمع في الوقت الذي يتكلم فيه وهو ما يفعله المستمع في الوقت ذاته، إن سمة المباشرة في الفعل الكلامي تعطي قوة خاصة في الفهم المباشر، سواء تحقق كاملاً أو غير كامل أمّا الكتابة فإنها تكتسب أهميتها من خلال التمرکز حول العقل، حيث يصبح الكلام مستحيلاً ولهذا يضع الكاتب أفكاره على الورقة فاصلاً إياها عن نفسه، ومحوها إياها إلى شيء قابل لأن يقرأ من شخص آخر بعيد، حتى بعد موت الكاتب، وكل هذا يفتح الآفاق لمزيد من الاحتمالات ومن هنا ينشأ الاختلاف الكبير بين الكلام والكتابة.

لهذا كان سعي دريدا سعياً واضحاً وحديثاً نحو تفكيك فلسفة الحضور، فجاء صوته ثورة على اليقينية المطلقة في الفكر الغربي، وثررة على سكونيته، إذ رأى أن التمرکز حول العقل دفعه إلى واجهة الاهتمام، وأعطاه سلطة التحكم في مسار الفكر، إذ آل في النهاية إلى مجود ذي قوة لامتناهية، وفي ظل هذه الزعة العقلية، صار القياس المنطقي نموذجاً أولياً تقاس عليه النماذج الفكرية والمعرفية، إضافة إلى أن التمرکز العقلي أنتج تمركزاً قوياً متفرداً أقصى كل ممرسة فكرية تخالفه؛ لأنه ربط بينه وبين معنى الحقيقة، وأنتج بذلك نظاماً مغلقاً من التفكير قائماً على خدمته ولا وديمومته ثانياً .

وقدر رأى دريدا أن مذاهب الفلسفة ونظرياتها المتنوعة، ماهي إلا صور من نسق واحد هو نسق التمرکز حول العقل، والعقل مستند على الصوت حتى في حديث النفس مع نفسها وفي تواصلها مع ذاتها، فكان العقليون يهتمون بالكلام أكثر من الكتابة وكان الوجود عندهم

مجرد حضور يتم تعيينه وفق ما يقبله العقل والمنطق، فرفض دريدا هذه الميتافيزيقا العقلية - التي اعتوها مجرد مذهب خاص بمجموعة عرقية، ولأنّ العقليين قالوا بأنّ الوجود حاضر دائما، وهذا يعني بأنّ معناه ومفهومه ودلالته تكون هي الأخرى دائما حاضرة معه، وتكون محددة ومعروفة وفق أساس عقلي يؤمنون به وينطلقون منه، فإنّ دريدا قد ثار على هذا الأساس العقلي الذي كانوا يتمركزون حوله ليقول بفكوة غياب المعنى وضياح الدلالة، داعيا إلى انفتاح النص المكتوب وتوسيع مجاله المعنوي إلى ما لا نهاية فيظل القرئ في حالة مطردة لهذه المعاني الغائبة التي كلما اعتقد بأنه أحاط بها وجد معاني أخرى غائبة ومرجأة تفاجئه إنها الدعوة إلى إبعاد سلطة العقل وإحلال محله سلطة الذات، هذا وقد استعان دريدا بمقولات نقدية جديدة من أجل تقويض التمركز الدلالي حول العقل الذي سيطر على الفلسفة الغربية مثل القوّة والاختلاف والأثر.

عمل دريدا إذن من أجل لساء قواعد التفكيك الذي كان قد بدأه بنقده للفلسفة الغربية الأولى، بوصفها فلسفة عقلية منطقية تمجد العقل ملهمة إياه هالة من التقديس، لتجعل من سلطة العقل مركز العالم، وهو مركز الوجود الذي لا يتحقق حضوره إلا به ووفق مقاييسه ومعاييره المنطقية، ومن هنا وجه دريدا اهتمامه لتفكيك هذا المركز، ومحولة الإفلات من قبضة التمركز الغربي، وتقوية الأصل الثابت المتوحد بالقوّة .

المحاضرة الثامنة: مبادئ التفكيكية (جزء 2)

2- نقد سلطة الحضور (نقد التمركز الذاتي للحضرة الغربية):

بداية نقد ميتافيزيقا الحضور لم تكن مع دريدا وإنما مع الفيلسوف هيدجر، الذي مهد الطريق أمام دريدا، لتكون من المبادئ التي قامت عليها التفكيكية، نقدها لفلسفة الحضور؛ التي رأى دريدا أن الحضرة الغربية قامت عليها، وفلسفة الحضور هي فلسفة ضلوبة بجنورها في عمق الفكر الغربي، ليقوم دريدا بالثورة عليها والسعي إلى تبديدها، فاهتم أساسا بفكرة الحضور التي قال بها الفلاسفة الغربيون والتي مفادها أن كينونة الكائن تظهر وتتضح بوصفها شيئا حاضرا فمفهوم الأشياء والموجودات فيها بعينها، بوصفها أشياء حاضرة.

ليحاول دريدا إثبات العكس بنقضه لهذه الفكرة، فحسبه لا وجود لشيء حاضر ببساطة وكل ما نعتبره حاضرا معطى يعتمد لتحديد هويته على اختلافات وعلاقات لا يمكن أن تكون حاضرة، ويعنى هذا أن حضور الشيء لا يكفي بل يستوجب مجموعة أخرى مما يتعلق به من اختلافات وعلاقات لا يمكن إراكها لأنها غائبة، وبهذا فالحضور يضم داخله غيابا ما وبالتالي ستكون عملية الإراك ناقصة، وبغياب الوسائط المرجعية والاختلافات الغائبة فإن هناك معنى غائب دائما.

تتجلى هذه المقولة في الكتابات الأدبية والخطابات الفلسفية، في كون النص الأدبي أو الفلسفي ولو حضر كوجود متكون من وحدات لغوية، وكلمات وراكيب توحى للمرة الأولى بالمعنى العادي الذي يتشكل لدى أي قارئ من خلال القراءة الأولى له، يبقى يحتمل أكثر من هذا المعنى وأكثر من هذا التأويل، الذي قد يصل إليه قارئ واحد، فدريدا بنقده لسلطة الحضور التي تمركز حولها الفكر الغربي يكون قد رآل ذلك الحاجز الذي عمل طويلا على كبت المعنى والحد من انطلاقه وتعدده، فهو بمقولة الغياب التي دعا إليها، جعل معنى النص المكتوب أو الخطاب اللغوي دائما مؤجلا وغائبا، مختلفا ومتوعا حسب شخصية وثقافة كل قارئ وكل مثلق، في حين قصرت ميتافيزيقا الحضور معنى الأشياء والكتابات وحقائقها في وجودها وحضورها، كشيء واضح ولا وجود لمعنى مطلق وحاضر.

ومن منطلق نقد ميتافيزيقا الحضور يعيد دريدا تصويره أيضا للزمن، وليس للفلسفة والأدب فقط، ففي تصويره إذا ما كان الأثر يحيل إلى ماضٍ مطلق فمعنى ذلك أنه يؤمن بالتفكير في ماضٍ لا يمكننا فهمه في شكل الحضور المعدل بوصفه حاضرا ماضيا، والحال أن الماضي مادام يعني دائما حاضرا ماضيا فإن الماضي المطلق الذي يبقى في الأثر، لم يعد يستحق اسم ماضٍ، إن المفهوم الميتافيزيقي للزمن كما يورى دريدا لا يمكنه أن يصف بشكل مطابق بنية الأثر، وبالتالي فإن فكوة هدم الحضور، هي هدم للزمن ذاته ، ويبقى هذا الزمن غير مكتمل ما لم يتجاوز ميتافيزيقا الحضور.

3-الثورة على النبوية:

تعتمد النبوية أساسا على البحث عن العلاقات التي تعطي للعناصر المتحدة قيمة وضعها في مجموع منتظم، وقد هاجم الكثير من رواد النبوية أنفسهم بسبب جمودها، و طبيعتها الصارمة و طريقتها التعسفية التي أبّت إلا الأخذ بالداخل في النص دونما النظر إلى الخارج ، في تجاهل صريح للمعطيات التاريخية و السياقية و المؤلف و ظروفه المؤثرة، كل هذا أدى إلى البحث عن سبيل آخر لنقد النصوص .

جاء نقد دريدا للنبوية انطلاقا من نقده لفكوة المركز التي وصفها بالاخضاع الإنساني الذي يهدف إلى تثبيت المعرفة والوصول إلى حقائق ثابتة، وبهذا يؤكد على كون النبوية هي الأخرى دعوة متجددة لميتافيزيقا الحضور، هذه الميتافيزيقا التي انطلق منها دريدا في نقده للعقل الأوروبي.

بداية النبوية من فكوة البنية تفتروض مسبقا نوعا من التزامن اللاهوتي الذي يستتجد بسومية الكتاب، ولهذا عني دريدا بتعزيز البنية وتقكيها، فليست ثمة بنية أو مركز فالمركز

عند دريدا خولج النص وداخله، إنه اللعبة المتواصلة بين المركز و اللامركز، وقد انتقد دريدا قضية الغائبة في البنية، ومركزية الحضور التي قادتته إلى القول بتزيق البنية وتفكيكها بحثا عن المعاني الغائبة التي هي سلسلة من الاختلافات، و بالمنطق نفسه انتقد دريدا البنيوية الأنثولوجية لليفي شتولوس- فهو عالق في مشكلة فلسفية في جوهرها- وقد أخذ نقد دريدا للبنيوية صدى أكبر في أمريكا على غرار فرنسا.

لتكون التفكيكية تجاوزا للبنيوية ومناهجها الصارمة الكلية، فكل عملية مساواة بين ما بعد البنيوية والتفكيكية إنما هي مساواة ستحيل إلى كون كليهما يصطبغان بنفس السمات فهما شريكان أكثر من كون أحدهما إفرازا للآخر، فكلاهما يحمل بذور الثورة على السائد، ويدعو إلى التعددية المنهجية وتجاوز الصرامة المنهجية العلمية، التي سادت المناهج البنيوية التي تقر بأن النص الأدبي متكامل وثابت، ولا تذهب لتعدد المعاني والقراءات، في حين أن التفكيكية غايتها تأسيس ممارسة فلسفية نقدية تتحدى تلك النصوص التي تبدو وكأنها مرتبطة بمدلول محدد ونهائي وصريح، إنها لا تريد تحدي معنى النص فحسب، بل تطمح إلى تحدي ميتافيزيقا الحضور الوثيقة الصلة بمفهوم التأويل، القائم على وجود مدلول نهائي.

المحاضرة التاسعة: أهم مقولات التفكيكية:

اجتوحت استراتيجيات التفكيك عناصر ومقولات إشكالية في الأساس شبيهة بطبيعة التفكيك في حد ذاته، ومن أبرز هذه المقولات : القارئ والاستقبال، الاختلاف، لا نهائية المعنى، الحضور والغياب، التناص الأثر، وحصرنا للمجموعة المذكورة لا يلغي وجود مقولات أخرى، كما أن محاولة تمييزها والفصل بينها صعب لكنه ممكن لأن الواحدة منها تحيلنا للأخرى وتوتبط بها في شكل حلقة موابطة لانهائية.

1-القارئ والاستقبال:

احتل الكاتب مكانة مرموقة في أغلب المناهج التي عرفها تليخ النقد الأدبي، فهو المحور والأساس منذ بزوغ فجر النقد الجمالي والتليخي، و إلى غاية المناهج السياقية بقي نجمه ساطعا، إلى أن حلّ عصر البنيوية الذي مجد اللغة والنص على حساب الأطواف الأخرى للعملية الإبداعية، لتحل التفكيكية معلنة بالفعل عن ميلاد القارئ وموت المؤلف، فقد أنهت استراتيجيات التفكيك عصر المؤلف، كما قامت البنيوية قبل ذلك ونادت بموت المؤلف لكنها لم تعلن عن ميلاد القارئ ، فالقارئ عند ريّدا متعدّد وهو الوحيد الذي يخلق المعنى الذي يبقى مرجأ لا نهائي.

2-الاختلاف والإجاء /الاختلاف المرجئ:

يعدّ مفهوم الاختلاف من المفاهيم الأساسية عند التفكيكين، ومن المونكزات الأساسية عندهم فالاختلاف هو الإراحة التي؛ تصبح من خلالها اللغة أو الشيفرة اللغوية نظاما مرجعيا مهمّا، يتميز بتليخية خاصة به تجعله فريداً عن باقي الاختلافات.

ومصطلح الاختلاف كما أوله المفكرون المعاصرون، يقوم على تعرض الدلالات في النص، والعلامات، التي تشير إلى أمور مختلفة، هكذا يظهر النص كأنه شيفرة، يجب على القارئ الناقد تفكيكها، وقد ارتكزت هذه المقولة على مفهوم هيدجر عن الكينونة التي تتكون من المعرفة والذات العرفية، حيث رأى أن كل من المعرفة والذات العرفية يتغير بمرور الزمن وبذلك تصبح عملية الفهم قابلة للاختلاف دائما.

بمعنى أن الحقيقة التي أصل إليها اليوم تظل مرجأة لحين ظهور حقيقة جديدة تنفيها وهكذا فمعنى النص الذي أصل إليه سيظل مرجأ، الاختلاف عند دريدا موجود في اللغة أصلا ليكون أول شروط لظهور المعنى، لا يعود الاختلاف إلى تليخ أو إلى بنية، فهو فعالية حرة غير مقيدة تملس مع كل قارئ لحين وصول قارئ آخر لمعنى جديد ومن هنا تتبلور مقولة لا نهائية المعنى.

المحاضرة العاشرة: أهم مقولات التفكيكية (جزء 2):

3- لا نهائية المعنى:

يقصد بلا نهائية أن كل معنى أو دلالة يتوصل له هو معنى غير ثابت ويمكن لجزءه، فاللعب الحر لا يقيد ولا يثبت، إذ مع وجود عدد لا نهائي من القراءات يوجد عدد لا نهائي من المعاني وحضور معنى هو غياب لمعنى آخر، وتكاثر المعنى في النص الأدبي الواحد يعطي فرصة للعب الحر للدلالة والمعنى فيصير المعنى غير مرتبط بقواعد تحدّه أو تقيدّه .

إنَّ القول بانعدام المعنى الواحد للنص بمثابة نتيجة طبيعية لتتالي الأفكار السابقة واختلافها فيما بينها، وبالتالي فهي تقرُّ بضرورة مشاركة مختلف المتلقين في بناء النص وتقديم معانٍ مختلفة وجديدة له، فالنص الجديد مختلف باختلاف المتلقين له، وبالتالي يتمُّ التأكيد على لا نهائية المعنى للنص الواحد، ممَّا يعني موت فكرة المعنى الموروث للنص؛ لأنَّه قابل لعدد لا متناهٍ من التفسيرات والتأويلات، إذ يؤدي اختلاف القراءة زمانياً ومكانياً إلى اختلاف نظرة القارئ للنص، وبالتالي اختلاف معناه باختلاف فهمه، فالعلاقة بين القارئ والنص علاقة خاصة، فكلُّ قارئ تصورات وانفعالات مختلفة، ولهذا فإنَّ النص لا يكون نصاً كاملاً في نظر التفكيكين-فمعنى النص ينتج من تفاعل بين بنيته ومتلقيه، لذا فإنَّ النص سيتجاوز صاحبه الأصلي، وسينتج أبعاداً أخرى عبر القراءات المتنوعة التي سيتعرض لها، ولا شك أنَّ النصوص المهمة هي النصوص التي تحثُّ القارئ على استنطاقها مع السيرة التاريخية للنص، فيكون النص قد تعرَّض لعدد كبير من القراءات، ولعدد لا نهائي من المعاني.

4-الحضور والغياب:

ويقصد بها ديمومة حضور معنى للنص وغيباه بظهور معنى آخر، لأنَّ التغيُّر المستمر لمعاني النصوص يجعلنا نعالج ثنائية الحضور والغياب؛ لأنَّنا أمام نصوص متطورة يحضر فيها أثر ويغيب آخر، وهناك الكثير من النصوص الخالدة عبر التطور التاريخي ما تزال تطرح معانٍ جديدة وتغيب عنها معانٍ قديمة، وبذلك تعتمد التطورات الحضورية في التفكيكية في بداية الأمر على التناقضات التي تحصل من المؤلف أو في داخل النص، وهو أمر كفيل بتغيب معانٍ لتناقضها مع الحقائق الجديدة أو لتناقضها مع البنية التحليلية للنص ذاته، فيكون ذلك

مبرراً لهدمه، كما أنّ التفكيكية تبحث في النص القديم مستفيدة من النتائج العلمية والبحثية الجديدة فتقدّم النص بروح جديدة ومعانٍ مغايرة لسابقتها.

5-التناص الأثر:

من أسس الاستراتيجيات التفكيكية والذي ألغى من خلاله يريدا الفواصل بين النصوص الأدبية ويعرف التناص على أنه تداخل للنصوص يحيل إلى استحالة حصر دلالاتها يقول فانسنت ليتش "إنّ تليخ كل كلمة في النص مضروبا في عدد كلمات ذلك النص يسوي مجموع النصوص المتداخلة مع النص الأخير قيد القراءة، ولتعدّر تحديد تليخ كل كلمة في النصوص السابقة فإنّ النصوص المتداخلة لا حصر لها، ومن ثمّ فإنّ دلالاتها يمكن الوقوف عليها لسعتها وتعدّها وذلك لأنّ النص في أصله بلاهوية ولا حدود ماهوية.

يستند تريدا في هذا إلى موقف هيدجر، الذي يوى أنّ كل نص حامل بالضرورة لغبار تقاليده الثقافية فكل نص حامل لآثار نصوص أخرى، وقد استبدل مفهوم العلامة بلفظ الأثر فمصطلح الأثر يوحى بإمكانية المحو فالأثر يسهل محوه ليحل محله معنى آخر، كل ما أمانا ليس نصا وإنما أثر لنصوص أخرى وبالتالي يصير النص عند تريدا هو التناص والأثر ويعبر رولان بارت عن هذا التناص بوصف النصوص جميعا كتابا كبيرا أو نصا كبيرا واحدا بما أنّ أقدم نص أدبي يتقاطع مع آخر ما كتب اليوم فلا استقلالية لنص عن آخر ولا وجود لنص نقي.

المراجع:

➤ أحمد بوخطة: "النص وفلسفة ما بعد الحداثة" مجلة الخطاب، ع 6، منشورات مخبر تحليل الخطاب، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الجزائر جانفي 2009.

- تيري إيغلتن: نظرية الأدب، تر: ثائر ديب، دار المدى للنشر، دمشق، سوريا، ط1، 2006.
- محمد عناني: المصطلحات الأدبية الحديثة: دراسة ومعجم إنجليزي/عربي، الشركة المصرية العالمية للنشر، ط، دت.
- عبد الله إبراهيم و آخرون: معرفة الآخر، مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1996، نجمان، ط 2، 1997.
- بشير تاويريت وسامية راجح: فلسفة النقد التفكيكي في الكتابات النقدية المعاصرة، عالم الكتب الحديث، إربد/الأردن، ط1، 2009 .
- سامر فاضل الأسدي: البنيوية وما بعدها النشأة والتقبل، دار المنهجية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2015.
- عبد العزيز حمودة: المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك ، مجلة عالم المعرفة، الكويت .
- حمدان العكله المنهجية التفكيكية، معانها وأسباب ظهورها وعوامل انتشارها، مجلة الاستغراب، العدد 27 : ربيع صيف 2022م / 1444هـ.